الكتاب الأول

تطور النقد الأدبى القديم

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

النقد الأدبى فى القرن الأول الهجرى

مع انتهاء عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، تطرأ على المجتمع العربى تغييرات جديدة فرضتها ظروف الدولة الأموية التى قامت لتتولى سلطة العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ووجد الأمويون أنهم فى حاجة إلى سياسة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم وكانت هذه السياسة تقوم على الترغيب والترهيب ، وتعتمد على المهادنة والمخاصمة . وكان من شأن هذه الأساليب أن انقسمت الدولة شيعا وأحزابا ، فعادت النعرة القبلية والعصبية اللتان كانتا سائدتين قبل ظهور الاسلام . وأصبحت الدولة الاسلامية فى عهد الأمويين أقاليم متباينة يتميز كل منها بملامح أدبية ونقدية معينة .

وفى الحجاز نجد الحكام والولاة من الأمويين يغدقون أهل هذا البلد بالمال ليضمنوا سكوتهم ويأمنوا شرور ثوراته ، لهذا رأينا سكان الحجاز يعيشون فى رخاء ودعة ، لما تمتع به هؤلاء الناس من ثراء نتاج الفتوحات التى حدثت على عهدى عمر وعثمان .

ومع الثراء عرف أهل الحجاز ألوان العبث وصنوف اللهو وفنون المجون وانعكس كل هذا على الحياة الاجتماعية ، فعرفت هذه البيئة الغناء والموسيقى والرقص بالإضافة إلى فن الشعر ، كما عرفت الفقه والحديث ، وقد أثرت كل هذا الفنون والآداب فى أحكامهم النقدية ، وظهر لون جديد من النقد تأثر بهذه العلوم . ولما كانت رقة المشاعر من السمات التى تميز بها هؤلاء الناس فقد جعلتهم هذه السمة يجنحون إلى حب الغزل ، فكانوا أكثر الأقاليم دراية بمعانى هذا الغرض الشعرى والنظم فيه .

ومن نقاد الحجاز فى هذه المرحلة سكينة بنت الحسين وابن أبى عتيق وعزة خليلة كثير ، وكان ابن أبى عتيق من أشهر نقاد العصر ، وينتهى نسبه إلى الخليفة أبى بكر الصديق ، ولهذا رفرف على أدبه روح الاسلام ، وانتشر نقده فى الحجاز ومكه والمدينة .

وقد نقد ابن أبى عتيق الكثير من الشعراء ، ويتسم نقده بالشفافية والحساسية والذوق ، وبخباله الخصب ، وفى نقده للشعراء نراه يتعاطف كثيراً مع عمر بن أبى ربيعة ولعل مرجع هذا أن شاعره ينتمى إلى قبيلته .

ولابن أبى عتيق معايير نقدية فى الشعر ، ترتبط بالشكل والمضمون ونظن أن النقاد الذين أتوا من بعده قد تأثروا بأحكامه .

ولقد أورد صاحب الاغانى والمرزبانى بعض الروايات من معاييره النقدية والتى كانت تتسم بالظرف أحياناً فى تحليله .

وحضر ابن أبى عتيق عمر بن أبى ربيعة وهو ينشد قوله :

ومن كان محزونا باهداق عبرة وهى عربها فليأتنا نبكه غدا[1]

نعنه على الأشكال ان كان ثاكلا وان كان محروباً وان كان مقصدا[2]

فلما أصبح ابن أبى عتيق أخذ معه خالد الحريت وقال له :

ـ قم بنا إلى عمر .....

فمضينا إليه ، فقال له ابن أبى عتيق :

ـ قد جئناك لموعدك

قال :

---

(١) عربها : يعنى ضعف دمعها ، نبكه : نعنه على البكاء .

(٢) المحروب : من سلب ماله ، المقصد : من طعن أو رمى بسهم ولم يخطئ مقاتله.

- وأى موعد بيننا

قال :

- (قولك ، فليأتنا نبكه غدا) قد جنناك والله لا نبرح أو نبكى ان كنت صادقا فى قولك أو تنصرف على غير صادق[١] .

وهكذا ، يرى ابن أبى عتيق أنه على الشاعر اختيار المعنى الملائم فى الموقف الذى يتفق معه ، كما عليه انتقاء اللفظ الذى يتواءم مع المعنى ، وهذا ماتجسده الرواية التالية عنه ، فقد قيل ، إنه ذكر شعر الحارث بن خالد ، وشعر عمر بن أبى ربيعة عند ابن أبى عتيق فى مجلس رجل من ولد خالد بن العاصى بن هاشم ، فقال :

- صاحبنا[٢] أشعرهما .

فقال ابن أبى عتيق :

- بعض قوله يابن أخى بالشعر ، عمر نوطة[٣] فى القلب ، وعلوق النفس ، ودرك للحاجة ، ليس للشعر وماعصى الله جل ذكره يشعر أكثر مما عصى يشعر عمر بن أبى ربيعة ، فخذ عنى ، ماأصف لك ، أشعر قريش من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ومتن حشره ، وتعطفت حواشيه وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته .

فقال الفضل للحارث :

- أليس صاحبنا الذى يقول :

---

(١) الاصفهانى : الاغانى - ص ١٥٢ - جـ١ - وزارة الثقافة .

(٢) يعنى الحارث .

(٣) نوطة : تعلق .

أنـى ومـا نحـروا غـداة منـى ... عنـد الجمـار يؤودها العقـل[١]

لـو بدلـت أعلـى مساكنهـا ... سفـلا وأصبـح سفلهـا يعلـو

فيكـاد يعرفهـا الخبيـر بهـا ... فيـرده الأقـواء والمحـل[٢]

لعـرفت مغنـاها بمـا ضمنـت ... منـى الضلـوع لأهلـها قبـل

فقال له ابن أبى عتيق :

- يابن أخى استر على نفسك ، واكتم على صاحبك ، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ، أما تطير الحارث لها حين قلب ربعها فجعل أعاليه حجارة من سجيل ، ابن أبى ربيعة كان أحسن صحبة للربع من صاحبك وأجمل مخاطبة ، حيث يقول :

سائـلاً للـربع ياليلـى وقـولا ... هجـت شـوقاً لى الغـداة طـويلا

وذكر الابيات الماضية .

قال :

- فانصرف الرجل خجلاً ، فدعنا[٣] .

وهذا النقد الذى ذكره ابن أبى عتيق ، نقد فى المعنى ، وهو لون من النقد كثيراً مانستعمله للمقارنة بين شاعر وشاعر فى عصرنا الحديث ، وكثيرا ماسمعنا النقاد المحدثين يقولون إن الشاعر فلان أجود من الشاعر فلان فى ابراز المعنى وتجسيده .

ومن الروايتين السابقتين ، يتضح لنا ، أن الرجل كان يهتم فى نقده بالمعنى واللفظ ، أو بالأحرى الشكل والمضمون .

---

(١) يؤودها : يثقلها .

(٢) الاقواء : خلو الديار من أهلها ، المحل : الجدب .

(٣) الاصفهانى : الاغانى - ص ٥١ ، ٥٢ ، المجلد الأول .

إذا ماتركنا الحجاز الذى اتسم فيه النقد بالبساطة والبعد عن التعقيد إلى العراق فنقول إن هذا البلد الأخير قد توافدت عليه الحضارات البابلية والآشورية والفارسية والرومانية منذ ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد ، فظهرت فيه الفنون والآداب والعلوم التى تأثرت بهذه الحضارات الاجنبية الوافدة .

وفى عصر الأمويين ، كان العراق مسرحا للفتن والثورات ، وكان من نتاجها استشهاد الحسين بن على فى الكوفة ، لهذا عرف شعب العراق بمعارضته للنظام الأموى ومناهضته له ، ووجدنا القليل منه يدين بالولاء للخلفاء والولاه من بنى أمية ولذلك اتخذ الحكام سياسة التفرقة بين القبائل والاحزاب والإيقاع بينهم ، واتخذوا من الشعراء سلاحاً للفتك بهم والنيل منهم وبث الفتن بينهم ، فكان الشعر الذى اتجه إلى الهجاء القبلى ومدح الحكام .

وهكذا ، عاد الشعر إلى سالف عهده فى العصر الجاهلى ، حيث النعرة القبلية والعصبية ، وتقدم الشعر الهجائى كل الألوان الأدبية ، وأثر فى ملامح النقد وأصبح أدب العصر الأموى مقترنا بجرير والاخطل والفرزدق شعراء فن الهجاء ، وراح كل شاعر من هؤلاء ينهش عرض الشاعرين الآخرين ويحاول النيل من شرفهما ، والعجيب أن نجد الجمهور الشعرى يتأثر بشعرهم الهجائى ، وبذلك عاد الشعر إلى ماكان عليه قبل الاسلام .

ولما كان سكان مدينة البصرة من غير العرب ومن الفرس والسريان وغيرهم من الأجانب ، ولما كانت هذه المدينة أكثر المدن قرباً من فارس . فقد كانت أكثرهم تأثرا بهذه الحضارة ، بينما كان أكثر سكان الكوفة من العلويين الذين تأثروا بالفكر المسيحى لقربهم من الحيرة . وقد أثرت هذه الثقافات الأجنبية فى تكوين الفكر العربى بلون خاص ووجهته إلى اتجاهات جديدة وأثرت فى الشعر الأموى من حيث المعنى والاسلوب .

ونجد على رأس علماء البصرة الذين تركوا بصماتهم فى النقد أبا موسى الأشعرى وأنس بن مالك وأبا الحسن البصرى .

وكان الأول من أكثر الصحابة علماً بالقرآن ، بينما اشتهر الثانى بالحديث والفقه ، وتميز الثالث بالتقوى والخلق الكريم والعلم والفقه ، كما أنه رائد مدرسة المعتزلة ، وكان يقول دائماً أن الانسان حر .

وقد تفوقت البصرة فى الشعر والأدب والرواية وظهرت فيها أول مدرسة فى علم النحو يتزعمها أبو الاسود الدؤلى ، وقد دفعه إلى هذا الاتجاه ماأصاب اللغة من ضعف فراح يعمل على تصحيح ماأفسده الناس ، كما وضع بعض الابواب فى النحو .

اهتمت هذه المدرسة بالنقد اللغوى والنحوى أو الموسيقى ، ووجه أتباع هذه المدرسة عنايتهم إلى الشعراء فما أتفق وأحكامهم ، اعترفوا به وما اختلف مع أحكامهم أنكروه .

ويروى المرزبانى أن الاصمعى قرأ على عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانى حتى اذا بلغ قوله فى الناقة :

مذوفة بدخيس النحض بازنهـا لهـا صريف القعـو بالمسـد[1]

يقول أبو عمرو :

ـ ماأضر عليه فى ناقته ماوصف .

فقال له :

ـ كيف ؟

قال :

---

(١) الدخيس : اللحم المكتنز الكثير ، النحض : اللحم البازل ، الصريف : صياح من النشاط ، القعو : مايضم البكرة إذا كانت من خشب ، المسد الحبل المفتول .

- لأن صريف الفحول من النشاط وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذا تكلمت العرب[١] .

ومن الغريب أن نجد المدرسة النحوية واللغوية فى النقد كانت من الأسباب التى أدت إلى نحل الشعر ، ولقد وصل هؤلاء الأنصار فى نقدهم إلى حد الشطط وكان يبهرهم كل ماهو شاذ فى الشعر للأستشهاد به ، والجودة عندهم لمن امتلك حصيلة غنية من هذه الشواذ .

أعنى أن ظاهرة الاستشهاد بالشاذ دفعت الرواة إلى الوضع ، وقد يفعلون هذا اما بدافع التكسب أو من أجل الشهرة بين علماء اللغة والنحو .

وفى العصر الأموى ، كثرت الندوات الشعرية ، وفيها كان الشعراء يجتمعون لمناقشة أعمالهم وانتاجهم .

يجتمع «نصيب» و «الكميت» و «ذو الرمة» فيقول الكميت قصيدته :

هل أنت عن طلب الايقاع منقلب

فإذا ماوصل إلى قوله :

أم هـل ظعائن بالعلياء ناقعة وان تكامل فيها الانس والشنب[٢]

فعقد نصيب واحدة - فقال الكميت :

- ماذا تحصى ؟

قال :

- خطاك ، باعدت فى القرل ما الانس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

---

(١) المرزبانى : الموشح - ٥١ .

(٢) الشنب : عذوبة فى الاسنان .

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب[١]

ثم أنشدهما قوله :

اذا ما الهجارس غنيتها وتجاوبن بالفلوات الوبارا[٢]

فقال له النصيب :

- الوبار لا تسكن الفلوات ، ثم أنشد حتى بلغ قوله :

كأن الغطامط من عليها أراجيز أسلم تهجو غفارا[٣]

فقال له النصيب :

- ماهجت أسلم غفاراً قط ، وانكسر الكميت وأمسك[٤] .

وعرف هذا البلد لوناً جديداً من الأدب والنقد ، ونعنى به نقد وأدب الخوارج ، وتميز انتاج هؤلاء الخوارج بالسمو والشفافية والبعد عن الهجاء والمدح .

ومن نقدهم المعروف اطلاقهم شاعر المؤمنين على شاعرهم عاصم بن الحدثان ، بينما اطلقوا على الفرزدق شاعر الكافرين ، وهذا يعنى أن هؤلاء الخوارج كانوا يتجهون بنقدهم إلى الفكر الدينى .

وأما الشام مقر الخلافة الأموية ، فإننا نجد فيها أدبا مغايرا لأدب الحجاز والعراق ، ولم تكن بيئة الشام شاعرية كما هو الحال فى الاقليمين الآخرين .

وقد عرف عن الخليفة عبد الملك بن مروان اعجابه بالشعر والتقريظ والمدح[٥] ، وكان له ذوقه الشعرى ، وكثيرا ما كان يضيق بالشعراء الذين

---

(١) اللمياء : سمرة الشفتين .

(٢) الهجارس : جمع هجرس وهو القرد والثعلب أو ولده .

(٣) الغطامط : بضم الغين صوت غليان القدر ، أسلم وغفار : قبيلتان .

(٤) الاصفهانى : الاغانى - ص ٣٤٨ - جـ ١ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين . ص ٣١٥

لا يصدقون فى مدحهم ، وعند سماعه قصائد الشعراء كانت له الكثير من الآراء النقدية وفيها يذكر محاسنها وعيوبها .

ويذكر ابن قتيبة هذه الرواية التى تكشف عن حاسته الفنية فى النقـــد :

«دخل الاقيشر على عبدالملك بن مروان وعنده قوم ، فتذاكروا الشعر .

وذكروا قول نصيب :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فياويح دعد من يهيم بها بعدى

فقال الاقيشر :

ـ والله لقد أساء قائل هذا الشعر .

قال عبدالملك :

ـ فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟

قال :

ـ كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى ، فان أمت أو كل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبدالملك :

ـ والله لانت أسوأ قولا منه حين توكل بها .

فقال الاقيشر :

ـ فكيف كنت تقول ياأمير المؤمنين ؟

قال :

ـ كنت أقول :

تحبكم نفســى حياتى ، فان أمت فلا صلحـت دعد لذى خلة بعدى

فقال القوم جميعاً :

- أنت والله ياأمير المؤمنين أشعر القوم[١]

وجاز لنا القول ، بأن عبدالملك بن مروان من الرواد الذين وضعوا الأسس النقدية فى هذا العصر ، ووضع المعايير النقدية للشعر والخطابة ، وهى مقاييس جديدة اتخذها الشعراء والخطباء بل النقاد شعاعاً لهم فى أعمالهم الأدبية والنقدية ، والرجل فى نقده أقرب مايكون إلى الموضوعية .

واهتم خلفاء العصر الأموى بالندوات الشعرية ، وفيها كنا نجد الشعراء يتبارون فى القاء القصائد ونقدها وكثيراً ماشارك الولاة فى النقد .

وذكر الرواة أخبار هؤلاء الشعراء ، وما أثير حول شعرهم ، وتكلموا بخاصة عن شعراء النقائض جرير والأخطل والفرزدق ، حيث كان لكل واحد منهم الكثير من المعجبين الذين راحوا ينصرونه على خصميه ، ويدافعون عنه ، ويعرضون مزايا قصائده ، وعوامل تفوقه على الآخرين ، وفى ذات الوقت يحطون من شعر معارضيه ، وقد لعب هؤلاء الاتباع دوراً متميزا بعد ذلك فى اتجاهات النقد .

أقول ، إنه حدثت نهضة أدبية فى العصر الأموى ، برغم الظروف السياسية التى مرت بها الدولة ، وبرغم اتخاذ الخلفاء سياسة من شأنها بث الفرقة بين الناس ، وقد أثرت هذه النهضة فى الحركة النقدية ، فوجدنا نقداً مغايراً فى بعض معاييره لنقد عصر الجاهليين وكانت الأحكام النقدية بين النقاد تتفاوت أذواقهم وثقافاتهم ، وأثرت المدارس اللغوية والنحوية فى الشعراء والنقاد وكان علماء اللغة والنحاة يخضعون الشعر للأحكام النحوية ، وعندهم أن المتفوق من الشعراء من اهتم بقوافى الشعر ، ومن كانت قصائده تتفق والقواعد النحوية ، والشعر المضطرب عندهم من أفسد صاحب فيه مقاييس اللغة .

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء - ص ٤١٢ جـ ١.

واهتم نفر من النقاد بأغراض الشعر ، وعند هؤلاء أن الشاعر المجيد من أحسن النظم فى أغراض المدح والفخر والهجاء والغزل وهى الموضوعات التى نظم فيها الجاهليون .

ومن مقاييسهم النقدية مدى التأثر بالشعراء القدامى أو المعاصرين وقوموا الشعراء بشخصياتهم الفنية ، والتجديد الذى أحدثوه فى أشعارهم ولم يجدوه فى قصائد السابقين لهم من الشعراء .

وعلى الرغم أن النقد فى ذلك العصر قد اعتمد فى الكثير من قواعده على الاحكام الذاتية واتسم بالتعميم والعفوية ، وأنه كان يستند إلى أحكام جزئية والمفاضلة بين بيت وبيت .

وعلى الرغم أنه قد ظهر لون جديد من النقد اللغوى الذى اعتمد فى احكامه على النحو ومفردات اللغة والعروض .

وعلى الرغم أن النقاد قد اتجهوا فى نقدهم إلى الالتزام بأن تكون المعانى جيدة والألفاظ مناسبة ، وأن تتوا هم الألفاظ مع المعانى ، ويتميز الاسلوب بالسلاسة ويطابق الكلام مقتضى الحال .

نقول على الرغم من هذا كله ، فقد اتجه النقد إلى ارضاء أذواق الجمهور ويزعم البعض أن نقد هذه المرحلة قد تأثر بالفلسفة اليونانية وبخاصة كتاب أرسطو (فى الشعر)(١) .

وتفترق بنا السبل مع احسان عباس الذى يزعم بأن النقد فى العصر الأموى قد تأثر بآراء أرسطو فى كتابه «فى الشعر» ذلك لأن هذ الكتاب ترجم فى العصر العباسى وقد نقله أولاً من اليونانية إلى السريانية حنين بن اسحق ، ثم نقله بعد ذلك أبو بشر متى بن يونس من السريانية إلى العربيـة .

---

(١) ارجع إلى :
أ - بدوى طبانه : دراسات فى نقد الأدب العربى ص ١١١ - ١٢٤ .
ب - احسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٥ - ٥٩ .
جـ - عبد الرحمن عثمان : مذاهب النقد وقضاياه ص ٢٣٤ - ٢٤٦ .